

أنا سعيد بالحرب!

نعم هناك أشياء كثيرة تسعدني!! ليس كل الوقت حزن ودموع، هناك العديد من الأشياء التي تُسعد الروح وتضيء القلب رغم حلقة الليل الذي نحياه.

اكتشاف معاني جديدة للحياة تسعدني.. اكتشاف قيمة الأشياء تسعدني. اكتساب خبرات جديدة، تعلم أن لا أحد في هذا الكون اختبرها سوى من عاش في غزة طوال فترة الحرب. الأوليات أعيد ترتيبها تماما. فمثلاً: تكتشف أن أغلى شيء تملكه شخصياً هو الزمن.. سنوات عمرك المتبقية.. الايام التي انقضت.. الساعات الدقائق التي تذهب هباء.

أكثر من عامين في أتون الحرب ونحن في حالة انتظار وترقب ان تضع هذه الحرب أوزارها، تمر الشهور والسنين واعمارنا نخسرها هباء دون فعل أي شيء مهم. أستيقظ كل صباح من النوم واكتشف انني لا زلت على قيد الحرب، اقول لنفسي ها نحن قد ربحتنا يوم آخر، علينا ان نحياه كما يجب على أكمل وجه. واتساءل ايضا عما هو الوجه الأكمل!! ربما ان تكون لطيف بقدر المستطاع مع ذاك ومع الآخرين، من يدري، لعلها فرصة الحياة الأخيرة في هذه المقتلة المستمرة.

أن تسعد روحك بما تيسر لك بالأشياء التي تعلم انها تسعدك فعلاً. ولكم ان تصدقوني، يا لها من سعادة غامرة تلك التي أجدها واقتناصها في اللعب مع الأحفاد. الجلوس مع العائلة تحت أي ظرف، تصفح جدران الفيس بوك ومتابعة تتابعات تطبيق تيك توك. إسعاد الآخرين ومن يستحقون اهتمامنا. كثيرة هي الأشياء التي تدفعنا الى ذكريات الماضي، حيث الندم حليف بعض منها ويتوجب علينا أن ننساها، لم تكن ذات قيمة او فائدة تذكر.. لم تكن سوى سلسلة من الخسائر المتواصلة.. تماما مثل اشخاص تصبح خسارتهم مكسب صافٍ لعدم استحقاقهم كل ذلك الاهتمام.

في خضم الحرب تصبح الرؤية أكثر صفاء لمن يمتلك نقاء البصيرة.. تحاول بقدر المستطاع الابتعاد عن كل ما يزعجك. وهذا أصبح نظام حياة، لم أعد أستطيع التأقلم أو الاقتراب من المزعجين وكل ما يسبب تنغيص المزاج او جلب النكد.. لدينا ما نفعله فيما تبقى من ايام اعمارنا الغالية. الحرب كشفت معادن الناس بوضوح. فمنهم من كنت تعتقد انه من الذهب فكان اعتقادك بمكانه وزاد توهجاً ومنهم من كنت تعتقد انه من الذهب، فتبين بانه من الصفيح. ومنهم من كنت تعتقد انه من الصفيح تبين ان معدنه من الذهب.

إنها نعمة اكتشاف قيمة الاشياء في الحرب وفي ظل المجاعة.. أن تكتشف قيمة نصف ضرر الثوم وقيمة شريحة البصل ومعني أن تحصل على رغيف خبز ليومك الطويل والمُنْهَك.. أن تتطور لديك حاسة الشم لتصبح كحاسة الشم لدى كلاب تعقب الأثر.. أن تكتشف ان للوز النيء رائحة ولورق الملوخية رائحة نفاذة، حتى أنك لو ركزت قليلاً بالرائحة عند شرائك للملوخية من السوق، ستشتري الملوخية الأجود من قوة رائحتها المنعشة. أما الاشياء التي لها رائحة بطبيعتها فالإحساس لديك يتضاعف مرات ومرات. فرائحة السمك المقلي على سبيل المثال تستطيع ان تشمه عن بعد مسافات لا تتخيلها. يبدو ان جسم الإنسان يطور حواسه ذاتياً حسب إلحاح الحاجة. وبالحرب حاجتك لكل الحواس تتطور. فالتذوق على سبيل المثال يصبح له معاني ومشاعر مختلفة تماماً عن السابق. فمثلاً لو تذوقت اللحم بعد طول انقطاع تكتشف ان اللقمة الاولى تضرب بالرأس مباشرة، وتحتاج للحظات من السعادة المستحدثة التي لم تشعر بها من قبل، وقد يدفعك هذا الشعور الى الضحك بشكل لا ارادي انت ومن يشاركوك الطعام. فكل من اختبر بالحرب تذوق الاطعمة التي يحبها وانقطع عنها لشهور، الكلمة التي يقولها مباشرة بعد التذوق هي: "الطعم ضرب في راسي". سواء لحم او فراخ او مكسرات او فاكهة. كل شيء يصبح له معنى جديد ومختلف.

نعم كل من عاش الحرب تعرض للخوف والقلق وعدم الأمان والحرمان والخذلان والصدمات النفسية التي تنني الجبال عن حملها. ولكن كل ذلك فور انتهاء الحرب سوف يتلاشى، أعلم ان الحرب ستلقي بظلالها عميقاً في النفوس وسيظل هناك بعض الندوب التي لن تنسى ولكن هناك منتج لإنسان جديد صُهر من نار وخيمة وصبر واحتمال وحرمان، يعرف كيف ينبعث مرة أخرى كالعنقاء، أكثر قوة وأشد صلابة، عصي على الانكسار.

علي أبو ياسين

5/9/2025